

أصدقاء خالد بن الوليد
في الشعر العربي

محمود فاخوری*

معلوم أن تراثنا العربي والإسلامي عميق الجذور في التاريخ، حضارة ومدنية وعمراناً وآثاراً، وعلومًا وآدابًا، وأمجادا وبطولات ملأت بنصاعتها بطون الكتب، وكانت كلها شواهد جليلة على تلك المآثر الجليلة التي كانت خيراً على أهلها وعلى الإنسانية جمعاء.

ولا يستطيع الباحث أن يقف عند الجوانب المتألفة كافةً في آن معاً، وإنما يختار منها ما يحقق الغرض الذي يسعى إليه، ولا سيما الوقوف عند شخصيات عظيمة اقترن تاريخها ببطولات نادرة، وعبقريّة فذة في العصور المتلاحقة التي خاض فيها العرب والمسلمون ملاحم خالدة ومعارك صعبة في فتوحهم وحروبهم المختلفة وتصديهم لأعدائهم من الروم والفرس وهم يسعون إلى الجهاد ونشر الإسلام وإعلاء رايته منذ عهد النبوة والخلافة الراشدة فما بعدها، مروراً بالحروب الصليبية، والتصدي للمغول والتتار ومن إليهم، ولمعت أسماء كان أصحابها موضع الإعجاب والتتويّه، من أمثال سعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة، وهرثمة بن عرفة، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير، ويزيد بن مزيد الشيباني، وهرثمة بن أعين، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس وغيرهم، ويرد في سياق سيرهم حديث عن معارك ظافرة كالفداسية، وفتوح الأندلس وإفريقية وما وراء النهر وحطّين وعين جالوت، وعمورية، والزلاّقة وما إليها.

ولا مرأ أن خالد بن الوليد المخزومي الفُرشي يُسلِّك في جملة أولئك العظماء الذين يزدهي بهم تاريخنا العربي والإسلامي حتى اليوم، فهو سيف الله، الفاتح الكبير، الذي لم يُقهر قط في أية معركة خاضها قائدًا، والذي شهد مع مشركي قريش حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وظهرت مقدرته أول مرة في معركة أحد عندما اغتتم فرصة انشغال المسلمين بجمع الغنائم، كما أخذ اسمه يتألق بعد دخوله في الإسلام منذ أن ولّاه الرسول صلى الله عليه وسلم الخيل وهنم بعض الأصنام، كالكالات

مدرس في كلية الآداب بجامعة حلب.

والعزى، وكذلك تولية أبي بكر الصديق لخالد قيادة الجيش في حروب الردة، وما كان منه بعد ذلك في فتح الحيرة وجانب عظيم من العراق، واجتيازه الصحراء إلى بلاد الشام لمتابعة الفتوح هناك، ويقترن اسمه بالمعارك التي خاضها محارباً للفرس أولاً، ولا سيما "الولجة" و "ألنس" و "ذات السلاسل" و "عين نمر" و "دومة الجندل" و "الفراض"، ثم محارباً للروم في بلاد الشام سنة 13 هـ بعد أن كانت مواقعه الخمس عشرة في العراق سنة 12 هـ غرة في جبين تاريخه. وفي بلاد الشام بدأت عبقرية خالد في القيادة وفي تعاونه مع القواد المسلمين الآخرين كيزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص. وتأتي "اليرموك" في ذروة المعارك الخالدة التي يقترن بها اسم خالد بن الوليد، إذ يتولى الفاروق عمر الخلافة بعد الصديق، ويُقيل خالداً من إمارة الجيش، ويولي مكانه أبا عبيدة بن الجراح، ويتابع خالد الاشتراك في فتوح مدن بلاد الشام تحت راية أبي عبيدة، مثل دمشق، وغيرها. وتذكر خلال ذلك معركة يكون فيها لخالد أثر كبير وهي "الواقصة" أو "الواقصة".

يضاف إلى هذا الجانب العسكري في حياة خالد جوانب أخرى جديرة بالإجلال والتقدير، كتوطيد أركان الدولة الإسلامية، وإقامة العدل في معاملة أهل البلدان المفتوحة، وأعمال العمران، فضلاً عن السمائل الذاتية لديه من سمو خلقي، وشجاعة نفسية، وإنكار للذات، موقناً أن الرجال لا يقاسون بما يتولون من أعمال، بل بما يحسنون القيام به من شرف ونبل، وما يعود نفعه على الأمة وإن تكلفوا فيه عناءً، وواجهوا صعوبات تنوء بها الكواهل. وبقي هذا رأيه حتى وافاه الأجل سنة 21 هـ في خلافة الفاروق عمر الذي كانت له مواقف معروفة من خالد في مناسبات مختلفة.

وقد كان لهذا كله من سيرة خالد، وأعماله، وتقلباته، وسجاياه، وموقف عمر منه -أصداء مختلفة ومتفاوتة في الشعر العربي، وخصوصاً الشعر المعاصر، تبعاً للظروف والمناسبات، وتبعاً لسيرورة الأحداث والكوائن التي تلم بالعرب والمسلمين.

على أن نصيب خالد في شعرنا القديم خاصة لم يكن وافراً، حتى في أيام خالد نفسه، ذلك أن المسلمين كانوا يخوضون المعارك في سبيل الله لأنهم "رجال الله" اتخذوا هذه العقيدة ديناً، ومن ثم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية، ولم يخطر ببالهم أنهم يقاتلون أو يجاهدون من أجل أفراد متمثلين في قوادهم وأمرائهم. ولهذا قلما نجد في شعر الفتوح ذكراً لأحد القواد أو الأمراء، بل يرد بدلاً من ذلك ذكر أسماء المعارك التي خاضوا غمارها، بضمير جمع المتكلم، كقول القعقاع بن عمرو يوم وقعة "الفراض" التي انتصر فيها المسلمون بقيادة خالد على الفرس والروم وأحلافهم من بعض العرب:

لَقِينَا "بِالْفِرَاضِ" جَمُوعَ رُومٍ	وَفَرَسٍ غَمَّهَا طُولُ السَّلَامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُم لَمَّا التَقَيْنَا	وَبَيْنُنَا جَمْعَ بَنِي رِزَامِ

فَمَا فَتَتْ جُنُودَ السَّلَامِ حَتَّى

“أبا ليلى بن فدي” في موقعة “الخنافس” إحدى المعارك الخمس عشرة التي خاضها خالد بن الوليد في العراق:

وقالوا: ما تريد؟ فقلت: أرمي

فدونكم الخيول، فأجموها

وإشادتهم بما قام به من حروب الردّة، كقول عبد الرحمن (الملقب بعبد عمرو) بن مطر الحنفي، من قصيدة قصيرة:

رَأَيْتُ الْمُحَارِبَ لِابْنِ الْوَلِيدِ

فِيَا بَنَ الْوَلِيدِ، وَأَنْتَ امْرُؤُ

وَمَنْ مَنَعَ الْحَقَّ مِنْ مَالِهِ

وَكَفَّاكَ: كَفُّ تَضْيِيرِ الْعَدَا

فمما للبيعة من ملجأ

حروب الردة:

لَنْ يَهْزِمَ اللَّهُ قَوْمًا أَنْتَ قَائِدُهُمْ

بالروم وأحلافهم وقعة عظيمة.

اسم موضع في تلك المناطق، له ذكر في الفتح.

رأسعة، فيها قري وحصون وعيون ونخيل، وكانت موطن المرتدين من قوم مسيلمة الكذاب.

كفّاك: كفّ عذاب عند سطوتها على العدو، وكفّ مرة غُفّر⁽¹⁾

وقول الراجز محصن بن الحارث الأسدي، وكان مع خالد بن الوليد حين خرج من الحيرة متجهاً إلى الشام، كما أمره الخليفة أبو بكر الصديق، بعد أن استخلف المثنى بن حارثة على الحيرة، وكان خروج خالد في ثمانمئة من الرجال في شهر ربيع الآخر سنة 13 هـ. يقول محصن:

إذا رأيت خالداً مخفّفاً وكان بين الأعجمين أنصفاً

في فيلقٍ بالنقع قد تلحقا وهبت الريح شمالاً حرجفاً

في حومة الموت إذا الموت هفا لوذّ بعضُ القوم لو تخلفا

ليس أخو الإسلام إلا من وفى⁽²⁾

وفي أثناء اجتياز خالد وجيشه تلك الصحراء مرّوا بموضع يقال له "البشر" فوجدوا فيه قوماً في مجلس خمرة، وبين أيديهم جفنة (وعاء كبير) وأحدهم يتغنّى بهذه الأبيات:

ألا علّاتي قبل جيش أبي بكر لعلّ منايانا قريب وما ندري

ألا علّاتي بالزجاج وكرراً عليّ كُميت اللون صافية تجري

أظنّ خيول المسلمين، وخالداً سيطرّفكم قبل الصباح من "البشر"

فهل لكم في السّير قبل قتالهم وقبل خروج المُعَصِّرات من الخدر؟

فما هو إلا أن فرغ من إنشاده فشذّ عليه رجل من المسلمين بالسيف فضرب عنقه، فإذا رأسه في الجفنة، ثم أقبل على أهل "البشر" فقتل منهم وأصاب من أموالهم⁽³⁾.

وبين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب مواقف معروفة، كان عمر يتتبع فيها خالداً ويحاسبه على أفعاله وأقواله التي يرى هو أنها خرجت عن السنن الذي يتفق والأدبيات الإسلامية. ولا نريد أن نقف هنا عند الأسباب البعيدة لهذا التتبع وتلك المحاسبة، وإن كان في بالنا ما روي من أنه "اصطرع عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وهما غلامان، وكان خالد ابن خال عمر، فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجُبرت، فكان ذلك سبب العداوة بينهما"⁽⁴⁾. وفي هذا السياق يُذكر أن عمر بلغه

(1) الإصابة، لابن حجر 109/1 و"من الضائع من معجم الشعراء" 13 الدُّبر: ضد القُبْل. ويروى: "ولن يسمي" والمعنى على الروايتين: لن تمزم أبداً، ولن تولّي الأعداء دُبرك.

(2) الأوائِل للعسكري 17/2 وانظر تمهيد تاريخ دمشق 110/5 مخفف: خفيف الحمل في السفر. والأعجمان: يعني الفرس والروم. وأنصف: بلغ نصف الطريق. الحرجف: الباردة جداً. هنا: أسرع.

(3) عمود الأخبار 143/1 وانظر الأوائِل 17/2 المُعَصِّرات: الفتيات الشابات.

(4) تمهيد تاريخ دمشق الكبير 112/5.

أن خالداً دخل الحمام فتدلك بالنورة وبعضفٍ معجون بخمر فكتب إليه عمر ينبّهه على سوء ما فعل، وأن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها، وأنها نجس لا ينبغي أن تمسّ الجسد. فكتب إليه خالد: إننا قتلناها -أي مزجناها بالماء وغيره- فعادت غسولاً غير خمر، أي زالت عنها النجاسة. فكتب إليه عمر: إنني لأظن أن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء، فلا أماتكم الله عليه. فقال خالد بن الوليد يخاطب عمر:

سهل أباح حفص، فإن لدينا شرائع لا يشقى بهن المسهل
أنجست بالخمير الغسول ولا يرى من الخمر تثقيف المحل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه خمياً الخمر، والخمر تسلسل؟⁽¹⁾

وفي هذا الخبر نقرأ تلك الأبيات الثلاثة التي تدل على أن خالداً كان ينظم الشعر، وهو مقلّ جداً في ذلك، شأنه شأن سائر الصحابة الذين كان الشعر يجري على ألسنتهم في بعض الأحيان كأبي بكر الصديق، والفاروق عمر وغيرهما. ومن شعر خالد أيضاً رجز قاله حين قام بهدم صنم "العزى" فكان يقول وهو مجرد سيفه:

يا عزّ كُفرتك لا سبحانه إني وجدت الله قد أهاتك⁽²⁾

ومما يجدر ذكره حقاً أن خالداً حين شعر بدنوّ أجله أوصى إلى عمر بن الخطاب على ماله وأطفاله بعد موته، وقال عمر حين علم بموته: ما على نساء قريش أن يبيكين أبا سليمان... ومما قاله أيضاً: هل قامت النساء عن مثل خالد؟ وكان يقول لما مات خالد: قد تلم في الإسلام ثلماً لا ترتق، ولة ندمت على ما كان مني إليه⁽³⁾.

وسارت في جنازة خالد امرأة محتزّمة -قيل: هي أمّه- كانت تبكيه وتدبّه وتقول:

أنت خير من ألف ألف من النسا س إذا ما كبّت وجوه الرجال
أشجاع؟ فأنت أشجع من لينا ث عرين حميم إلى الأشبال
أجواد؟ فأنت أجود من سبب ل دياس يسيل بين الجبال⁽⁴⁾

تلك هي أصداء خالد بن الوليد في الشعر القديم الذي قيل في عصره حتى وفاته سنة 21 هـ في خلافة الفاروق عمر الذي توفي بعد سنتين تقريباً من وفاة خالد. وقد يكون هناك أبيات قليلة جداً

(1) تهذيب تاريخ دمشق الكبير 110/5-111 والثورة: خليط يستعمل لإزالة الشعر.

(2) تهذيب تاريخ دمشق الكبير 101/5 وقوله: "يا عزّ" منادى مرثم، أصله: يا عزي.

(3) المصدر نفسه 97/5، 114.

(4) المصدر نفسه 114/5 والدياس: مصدر داس الشيء: وطّنه، وفلاناً: أدّله - والمراد غزارة السيل وتدفعه. وربما كانت محرفة عن "رياس" بالراء وهو السيل الذي يجمع الغناء ثم يتحمله.

لا تخرج عما وقفنا عنده من ذلك الشعر، ضربنا صفحاً عنها. وذلك الشعر كله قيل في أيام عز العرب والمسلمين، وقوة دولتهم وتوطيد أركانها في التوسع والفتوح والاستقرار. ومرّت بعد ذلك قرون وأجيال تعرّضت فيها تلك الدولة لهزّات عنيفة وأزمات صعبة، وكان يظهر خلال ذلك شخصيات عظيمة تعيد التوازن، وترأب الصدع، وتجمع شمل الأمة بعد تمزق، لتقف في وجه الأعداء والمغربين الطامعين كالمغول والتتار والصليبيين في المشرق، والإسبان الشماليين في الأندلس، وظهر قوّد أبطال وزعماء أفاضل اقترنت أسماؤهم بمن سبقهم من أنداهم العظام من أمثال سيف الدولة، ونور الدين الزنكي، الملقب بالشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس ويوسف ابن تاشفين، فضلاً عن اشتها المعارك الظافرة التي أصبحت هي وأصحابها رموزاً سامية وأمثولات للنضال والدفاع عن الحمى، وصدّ الطامعين المعتدين، وسارت الركبان تشدو بحطّين، وعين جالوت، والزلافة مثلما تشدو باليرموك والقادسية وغيرها من الملاحم الخالدة التي يزهو بها تاريخنا كما نرفع بها رؤوسنا عاليات حتى هذا اليوم الذي تبدّلت فيه الأمور، وأصبح العرب والمسلمون في العصر الحديث مطلوبين بعد أن كانوا طالبيين، وصاروا هدفاً يُرمى ولا يُخاف بأسهم بعد أن كان يُحسب حسائهم، وانقلب أمرهم من القوة إلى الضعف، ومن الوحدة والتماسك إلى التفرقة والتخاذل، على كثرة عددهم، وأصبحوا يفتقرون إلى قادة عظماء يحيون أمجاد أسلافهم الشامخة، ويعيدون بناء صرح الأمة من جديد، أمام تكالب الاستعمار الغربي وأحلافه بأشكاله المختلفة، وأطماع الصهيونية الإقليمية والعالمية، وما يصحب ذلك من الغزو الثقافي، والترويج للعولمة المسمومة، واغتصاب الأراضي والحقوق المشروعة في فلسطين وغيرها، وما إلى ذلك من صنوف التنكيل والعذاب والمضايقات التي يتعرض لها العرب والمسلمون، أفراداً وجماعات ودولاً، وما أحوجهم في هذه الأيام الصعبة، والظروف العصيبة إلى أن يستذكروا أبطالهم الميامين الذين بنوا للأمة مجدها، وصنعوا لنا تاريخاً نفتخر به، من جهة، ونستلهم منه كثيراً من الأفكار والمعاني والقيم من جهة أخرى، ومن ثم يلتقي الماضي والحاضر، ويجري إسقاط تلك المعاني والقيم على حاضرنا المعيش غير المشرق، وتحديد معالم البطل المنشود في عصرنا الحاضر.

ومن ثم كثر في الشعر المعاصر استحضار الشخصيات التاريخية التي حرّكت الجماهير وكان لها في عصرها شأن يذكر، في مختلف الميادين الإصلاحية والسياسية والعسكرية والقيادية، من أمثال المتنبسي، وأبي العلاء المعري، وصلاح الدين الأيوبي، وطارق بن زياد، وخالد بن الوليد، وذلك لتأكيد وجودنا، وتجسيد تطلعاتنا، ودعم كيانتنا، والأخذ بأيدي الأمة إلى نصر مؤزّر، وظفر قريب نحلم به.

وأصبح من المألوف في شعرنا الحديث أن يتوجه بالخطاب إلى إحدى تلك الشخصيات لتحريك النخوة العربية والإسلامية لدى الحكام ورعاياهم، بعد أن فقدت الثقة بمعظمهم، الذين تمسكوا بالكراسي والرياسات، واستعان فريق منهم على آخر بالأجنبي الطامع، كما كان الشأن في الأندلس قبل خروج العرب والمسلمين منها سنة 897هـ 1492م وهذا ما جعل الدول العظمى وحلفاءها من حولنا تتطاحن في سباق نهم وهي تحشد جيوشها المزودة بأفتك الأسلحة وأشدّها خطورة، وتحاول أن

تفرض آراءها ومناهجها ومذاهبها السياسية والعلمية على المستضعفين في العالم، وتعمل بسوء نية، في الخفاء تارة، وفي العلانية تارة أخرى، لتحريك الفتن، وإشعال الحروب، عن طريق الترغيب أو التهيب، وإغراءات المال والمساعدات التي تقدم تحت أسماء مختلفة، وتخفي تحتها مخططات فاجرة تسعى إلى اجتياح بلاد العروبة والإسلام، لأننا سفي نظرهم - القوة التي تقف حجر عثرة في طريقهم، ف راحت أدمغة رؤسائهم تستوحى خطط الحروب والدمار من فجرة القواد وسفاحي الشعوب الذين أغرقوا البشرية في بحار من الدماء. وكل ذلك عاد بنا إلى معارك متعددة الجوانب، كثيرة التشابك والتعقيد، في مختلف البلاد العربية والإسلامية، وفي مقدمتها فلسطين والعدوان المبيت على العراق. وحال العرب والمسلمين يدعو إلى الأسى، لما حل بهم من تمزق في الشمل. وتفرق في الكلمة، وتقصير مفرط في الدفاع عن حقوقهم وفي كشف زيف ادعاءات العدو المشترك عن طريق إعلام موحد، ومدرّوس، أمام الغربيين في الفضائيات والقنوات المتلفزة.

من هنا راح شعراؤنا الغيّر يلونون بالماضي الزاهر وما جاد به من قواد وأبطال غيروا مجرى التاريخ، ويتوجهون إليهم بالخطاب الذي يوسم بأنه "حوار" مع فلان، أو "مرافعة" بين يدي فلان، أو "تداعيات" بين يديه، أو "فلان" وبعض القضايا المعاصرة. فضلاً عن عناوين أخرى موحية تتبع من التفاؤل تارة مثل: (موت ميت حياة، الفجر الزاحف، الغليان، الأعاصير...) والتشاؤم تارة أخرى: (الموت في شباب النهار، انكسارات الصهيل، الغربة في الزمن القارس، نداء الرّميم، رماد الهشيم...).

على أن هذه الظاهرة، ظاهرة استدعاء الشخصيات التراثية في شعرنا المعاصر، شاعت اليوم على نحو لم يعرفه شعرنا العربي من قبل، حتى أصبحت سمة بارزة في هذا الشعر. وساعد على ذلك أن التراث عندنا غني بمحتواه، وينبوع دائم العطاء، وأرض صلبة تصلح لأن يبني الشاعر المعاصر فوقها حاضره الجديد على أرسخ القواعد، وهو بعد ذلك حصن منيع يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه الأمن والسكينة⁽¹⁾.

فأما شخصية البطل خالد بن الوليد فقد كانت موضع اهتمام كثير من الشعراء المعاصرين، نظراً إلى أنه من أولئك القواد الكبار الذين قادوا جيوش الفتوح، وحققوا الانتصارات المجيدة، وهزّوا أعتى العروش الرومية والفارسية، وكانوا نماذج راقية للرجال الأفذاذ والعبقريات النادرة التي تدهش الألباب، وكانوا أيضاً ممن تباعدوا عن الظهور، ورغبوا في الشهادة الخالصة من الشهرة وطلب المغانم، فكانت حيواتهم مبعثاً لتجديد الهمم، والتذكير بالواجبات وفتح مجالات موصدة في مسالك الحياة لتحقيق الغايات المنشودة وتجسيد الآمال الناضرة⁽²⁾.

هذا الغنى في حياة خالد وسيرته ملأ نفوس الشعراء هيبه وإجلالاً، وجعلهم يستلهمون مآثره وبطولاته وجلائل أعماله عسى أن يتجمع الشمل، ويرتفع لواء النهضة عالياً خفاقاً، كما كان في

(1) انظر "استدعاء الشخصيات التراثية" ص 7.

(2) انظر "استدعاء الشخصيات التراثية" ص 159 و "خالد بن الوليد" لبكر موسى ص 7...

الماضي، وتتحقق الانتصارات المأمولة التي تضع حداً لمطامع الأعداء والكائدين، ولتخاذل الضعفاء من المؤيدين والقربى، وتتاح الفرص لظهور قادة موخّدي الكلمة ويعتمد عليهم في خوض المعارك المظفرة، واستعادة السيادة الغائبة.

ولا شك أن للشعر سلطاناً كبيراً، يفوق سلطان التاريخ وروايات الأخباريين، في استنهاض الهمم وتسجيل المواقف الخالدة، ونشر الوعي وتذكير الأجيال ببعض صفحات من سيرة البطل خالد ابن الوليد بوسائل وطرائق شتى، تعتمد على التاريخ حيناً وعلى تحليل شخصية خالد حيناً آخر لإبراز المفارقة بين روح الجهاد المتوقّدة التي كانت تضطرم في حنايا خالد وعروقه، وروح الضعف والخمول التي تسري في أوصال خلفه. فضلاً عن كثير من الفضائل الخلقية والنفسية، من شجاعة، ونجدة، ومروءة، وحسن صحبة، وسرعة ملاحظة، وحضور بديهة، وصبر في ساعات البأس، خلال حياته كلها.

وفي تأملنا لجمهرة ما قيل من الشعر العربي المعاصر، نجد لخالد بن الوليد ثلاثة أنواع من الأصداء في مطاوي ذلك الشعر وفي طرائق التناول، أمام تلك الشخصية الفذة، إذ يختلف ذلك باختلاف الشعراء أنفسهم من جهة، وباختلاف الظروف والمناسبات والملابسات، حتى عند الشاعر الواحد، من جهة أخرى:

(1) الصدى الأول يأتي فيه ذكر خالد بإيجاز على أنه بطل تراثي عظيم يحتفظ بمكانته السامية، ويصبح مضرب مثل للبطولة العربية والإسلامية في مختلف المناسبات، لحفز الهمم إلى معالي الأمور. فهذا أحمد شوقي -الذي تربطه بالأتراك العثمانيين أسباب دينية ونسبية- يسمع بانتصار الأتراك في الحرب والسياسة سنة 1922م بقيادة مصطفى كمال -قبل انقلابه الكبير على الحكم فيما بعد وتأسيس تركيا الحديثة- هذا شوقي ينظم قصيدة في تلك المناسبة التي انتهز فيها مصطفى كمال الخلاف بين الحلفاء فهجم على اليونانيين وطردهم من الأناضول، فيفتتحها شوقي بقوله:

الله أكبر، كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب
صنّح عزيز على حرب مظفرة فالسيف في غمده، والحق في النصب⁽¹⁾

وفي هذه الحقبة من التاريخ المعاصر تتوالى الأحداث على الوطن العربي، وتظهر أطماع الغربيين على حقيقتها، ويشعر العرب والمسلمون بالخطر الداهم فيقفون في وجهه، ويوقظون النفوس الغافلة، ويصبح اسم البطل خالد بن الوليد رمزاً للسمو، وقُدوة للمناضلين الأحرار، فنسمع صوت الشاعر السوري عمر يحيى وكان يعمل معلماً في البحرين سنة 1930- يلقي هناك قصيدة في ذكرى افتتاح النادي الأدبي، يقول فيها:

أيها الناشد مجداً تالداً هل تمشيت على شطّ اللّوار؟

(1) ديوان شوقي، نج. أحمد محمد الحوفي- القاهرة 1979، 306/1. أراد بخالد الترك: مصطفى كمال، الذي لقب فيما بعد بأتاتورك.

يضمّنها حبه للوطن وإشادته بالماضي التليد الحافل بالتضحيات والبطولات، ونقمتها على الحاضر المشؤوم، وأساه للشرف المطعون. حتى يصل إلى اليرموك وفارسها الأغرّ خالد بن الوليد، وموقفه العظيم يوم عزله:

ملاحمُ التضحياتِ الغرّ ما ذهبَتْ ببكر روعتها الأيامُ والعصرُ
يا من رأى فارس اليرموك يخلفه أبو عبيدة، والهيجاءُ تستعرُ
فما أحسنَ بجرحٍ في كرامته ولا تُسنى عزمه حَقْدٌ ولا كَدْرُ
فصاح في صحبه الأبرار مبتسماً والمجدُ في نشوة الإصغاء منغمراً:
إنّا نقاتل كي يرضى الجهادُ بنا ولا نقاتل كي يرضى بنا عمر⁽¹⁾

ونسلم صدى الفارس البطل ابن الوليد ينتشر في آفاق الشعر المعاصر، وفي مختلف الأجواء الوطنية والقومية، بهومها الثقيلة الوطأة، وأمانيتها المحفوفة باليأس والقنوط تارة، وبالتفاؤل المشوب بالحذر تارة أخرى، ولا سيما حين يكون الحديث عن مأساة فلسطين وجرحها البليغ الدامي الذي لا يجف ولا يبرأ. آية ذلك ما نقرؤه في هذه الأبيات للشاعر عبود كنجو من سورية- الذي يقول:

يا ظبية الغرب إن الجرح يؤلمني أين الشفاء، وذاك اللحظ مكحول؟
والروم من حولنا دارت جحافلها وخالد في إسمار السذل مغلول
كأنما قُضِب المران ما رقصت وما تنزل في الحصباء جبريلُ
ولا نسيم من صبا نجد يحركنا ولا تردّد في البطحاء ترنيل
كأنها لم تثر في الغرب ثائرة وما ملاحمهم إلا أقاويل⁽²⁾

وذاك الشاعر أسامة الصابوني الذي استغزّه استشهاد الطفل محمد الدرة وما فعله الصهانية الباغون بالعزل الأمنيين من أبناء العرب في فلسطين وبأطفالهم ونسائهم، ونسمع في هذا الشعر أصداء أخرى تأتلف وصدى خالد، من أمثال طارق بن زياد، وعمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، وذلك في قوله، راجياً ومؤملاً:

إنّي لألمح في الآفاق بارقةً هبت ربيعة منها، واعتلت مضرُ

(1) لم ينشر من هذه القصيدة سوى ثلاثة أبيات في ديوان عمر: "أمرك يا رب" ص 73 بعنوان: "أنا لا أقاتل من أجل عمر" أولها: "يا من رأى.." وثالثها: "إنّا نقاتل.." وبينهما البيت الآتي وهو ثانيها:

دعا سرّيته الغضى وقال لها، وبشمّة الكبر في خديّه تنتشرُ

(2) من مجموعة الشاعر، المخطوطة.

لعل طارق في حيفا، وخالد
وقد أتاهم صلاح الدين ممطياً
في تل أبيب، ويافا اجتاحتها عمر
ظهر الحصان، وطاف القدس يفتخر
لا بد من عودة الماضي وقد لمعت
في صدر يعرب، أو في صدرنا، الدرر⁽¹⁾

وفي هذا الصدد أيضاً يبحث الشاعر نزار القباني عن رجال عظماء يبعثون أمجاد سيف الدولة وقومه الحمدانيين، ويحيون شخصية المتنبي ببايائها وعنفوانها، ويلوذ بقبر البطل خالد بن الوليد في حمص، فيلمس لديه الغضب والهياج، ويقول له في سخرية لاذعة:

فلا خيول بني حمدان راقصة
زهاواً، ولا المتنبي مالى حلبا
وقبر خالد في حمص نلامسه
فيرجف القبر من زواره غضبا
يا ربّ حيّ، رخام القبر مسكنه
وربّ ميت على أقدامه انتصبا
يا بن الوليد، ألا سيف توجرة
فكل أسيفنا قد أصبحت خشبا

ولنتأمل في هذه اللوحة المتكاملة التي صاغها قلم الشاعر أمل دنقل لمشهد خالد بن الوليد وهو على فراش الموت حين قال قولته المشهورة، وجاء بها الشاعر في سياق المقابلة بين الماضي والحاضر: من حيث المواقف والشخصيات، والقيم والتصرفات والخلائق، فمزج المعطى التراثي بالمعطى المعاصر، وهكذا جاءت المفارقة على النحو التالي في المقطع الرابع والأخير من قصيدة دنقل: "الموت في الفراش":

أموت في الفراش... مثلما تموت العنبر
أموت، والنفير...
يدق في دمشق
أموت في الشارع، في العطور والأزياء
أموت، والأعداء
تدوس وجه الحق
"وما بجسمي موضع إلا وفيه طعنة برمح"
إلا وفيه جرح
إن

⁽¹⁾ من مجموعة الشاعر، المخطوطة.

"فلانامت عيون الجبناء" (1)

ويتوالى ذكر أبطال العروبة والإسلام مقرونين بخالد بن الوليد في عدد من قصائد الشعر المعاصر، منها قول الشاعر اليمني المشهور عبد الله البرتوني في مناسبة المؤتمر الذي عقده الأقطاب العرب الثلاثة: الإمام أحمد، والرئيس عبد الناصر، والملك سعود:

وحدة المجد والفخار التليد زعزعت مرقد الصباح الجديد
وحدثت شملهم كبار الأماني والدم الحر واعتزاز الجدود
واستفاقت مواطن العرب الشم، فعودي يا راية العرب عودي
واذكري في المعارك الحمر سعداً و"عليّاً" و"خالد بن الوليد"
تأنف العرب أن يدوس حماها الـ حُرَّ شرُّ العبيد، أدنى العبيد (2)

وقول الشاعر شفيق الكمالي، مستحضراً شخصية القائد خالد بن الوليد ومن سار على سنته في النضال ورفع لواء الحضارة والأمجاد، من أمثال طارق والمعتصم حتى يوسف العظمة في يوم ميسلون:

يا بنت مروان، يا كبراً همى قيماً ويا مناقب قوم حضرت أمما
أرى بها خالد اليرموك منتفضاً وأنتقي طارقاً فيها ومعتصماً
وتستطيل فالقى ميسلون، بها مجد يسلم مجداً بعده العلمما

وقول نزار قباني متطلعاً حوله، باحثاً عن عربي واحد ينتصر لقومه ويزيح عنهم كابوس الذل والضعف، ويكون كابن الوليد أو كطارق أو كعنتر، فلا يسمع إلا صدى الكلام الأجوف، وذلك سنة 1996 في قصيدته "راشيل" وكان في لندن:

انتظرنا عربياً واحداً

يسحب الخنجر من رقبنا

انتظرنا هاشمياً واحداً

انتظرنا قرشياً واحداً

(1) الأعمال الشعرية الكاملة، لأمل دتقل - مجموعة "تعليق على ما حدث"، ص 314 وانظر مجلة "الموقف الأدبي" 374 حزيران 2002م، ص 17.

(2) ديوان عبد الله البرتوني - المجلد الأول، المجموعة الشعرية الأولى: "من أرض بلقيس" بيروت - دار العودة 1986م، ص 151-153.

دون كيشوتاً واحداً
قبضايّاً واحداً.. لم يقطعوا شاريه
انتظرنا خالداً أو طارقاً أو عنتره
فأكلنا ثرثرة، وشربنا ثرثرة
أرسلوا فاكساً إلينا.. إستلمنا نصّه
بعد تقديم التعازي وانتهاء المجزرة!!.

(2) الصدى الثاني: وصل إلينا من شعراء لم يعرجوا على ذكر خالد بن الوليد وحده عابرين عجالي، ولا قرنوه برجال آخرين من عظماء أمتنا وقوادها الأعلام مجتمعين مستحضرين، وإنما خصّوا خالداً وحده ولكن بوقفة خاصة تناولت لمعة مهمة أو لمعاً أساسية في سيرة خالد ومواقفه وبطولاته، يسلط الشعراء عليها الضوء مستلهمين محلّين، في مطاوي قصائد ومطولات تاريخية، أو ملأهم شعريّة عامة تمتدّ زمنياً طويلاً، أو أن خالداً وحده يستأثر بقصيدة طويلة كاملة.

وعلى هذا نستطيع أن نوزع هذا الصدى ونجعله في اتجاهين:

(أ) مطولات تاريخية أقرب إلى السردية المباشرة، ممزوجة ببعض النظرات التحليلية والوقفات التأملية التي تخرج بتلك البطولات الشعرية عن الجفاف أحياناً، وتجعلها محفوفة بظلال وارفة مخضلة من الصور والأخيلة والعواطف المتأججة. ذلك أن تناول مثل هذه الموضوعات على هذه الشاكلة، والمستمدة من تاريخ العرب والمسلمين لم يكن الغرض منه في أذهان الشعراء ودافعهم إلى القول مجرد السرد والتسجيل، فكتب التاريخ المطولة تغني عن ذلك، وقد تفوقه دقة وتفصيلاً، بل كان ذلك سبيلاً إلى معالجة حاضر الأمة والثورة على واقعها، ومنطلقاً ركيناً للشاعر نحو الغاية المنشودة التي تتركز في يقظة العرب والمسلمين، ونهضتهم من جديد، وتستلهم الماضي القريب والبعيد، وتقوم باستدعاء شخصيات هذا وذاك، لتنفخ روح القوة في الحاضر، وتبعث على الثقة بالمستقبل.

وهكذا راح الشعراء المعاصرون ينظمون مطولاتهم تغنيّاً بالأمجاد الأولى في ظل العروبة والإسلام، وفي مقدمتها غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، والفتوح بعده في أيام الخلفاء الراشدين من أمثال اليرموك والقادسية، والشخصيات التي لمعت في تلك الوقائع، ولا سيما خالد بن الوليد، وتتضح من تلك القصائد روح الاعتزاز بتلك العهود الزاهية ورجالها وقوادها⁽¹⁾.

ولعل أول الشعراء المعاصرين الذين ضربوا على هذا الوتر هو أحمد شوقي⁽²⁾، الذي نفى إلى الأندلس (إسبانيا) وأقام هناك خلال الحرب العالمية الأولى تقريباً (1915-1919م)، فاستقرّه مجد

(1) انظر "الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث" ص 248.

(2) لم يكن شوقي أول من استخدم الشعر التاريخي في أراجيز مطولة، بل سبقه إلى ذلك آخرون من القدماء كابن المعتز، وابن عبد ربه الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب...

تبدأ "المقدمة" بقول أحمد شوقي:

الحمد لله القديم الباقي ذي العرش والسبع العلا الطباق
المليك المنفرد الجبار الدائم الجلال والإكبار

وتتوالى الأقسام بعد ذلك تحت عناوين أساسية، مثل: لغة العرب، التاريخ، الوطن، البيت الحرام، السيرة النبوية الشريفة، الخلفاء الراشدون، خلافة أبي بكر الصديق، خلافة عمر بن الخطاب.

ويكي ذلك مباشرة عنوان "عمر وخالد بن الوليد" (40-42).

وقد جاء ذلك في 28 بيتاً مصرعة الأقطار (مزوجة)، بدأها شوقي بقوله:

والله ما أدري، ولا تدري الزمر ما كان بين ابن الوليد وعمر
سيف الإله سلته النبي وهزلة وليه الحبي
أغمدة، لا كلاً ولا مقصراً في حرب كسرى، وقتال قيصراً

ثم يذكر شوقي ما نعرفه في التاريخ من عزل عمر لخالد، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح أميراً عاماً للجيش في فتوح الشام، وكانت موقعة اليرموك في ذروتها. وكان عمر قد خشي من مغبة إقبال الناس على خالد، وافتتاتهم به، وقال له بعد ذلك حين استدعاه إليه: "ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس، فخفت أن تفتن بالناس". وقد انتصر أحمد شوقي لعمر في تدبيره، وأوجد له العذر في ذلك. يقول:

خاف الإمام أن يكون فتنة سياسة عالية وفطنة
أعيد من مضلة الحقد عمر مثل الإمام بالمرشد ائتم
لعله أبصر وجهه منفعة أو خاف ضرراً قرأ أن يدفعه

(1) أقحم شوقي في أرجوزته المطولة هذه موشحاً أندلسياً عن "صقر قریش، عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة الأموية، وجعل وزنه على بحر الرمل، انظره ص 70-87.

فالسيفُ لا تَأْمَنُهُ أَنْ يَتَقَلَّبَ كَمَ غَلَبَ الْحَقُّ بِهِ، وَكَمَ غَلَبَ
فِي طَبْعِهِ الطَّيْرَةُ وَالشُّرُورُ وَرُبُّهُ يَوْمًا بِهِ مَغْرُورُ

وبعد أن يتحدث أحمد شوقي عن الخليفَتين الراشدين: عثمان بن عفَّان، وعلي بن أبي طالب، ينتقل إلى خلافة معاوية، وإلى عمرو بن العاص وفتح مصر، وبعدهما يخص "خالد بن الوليد" بوقفه طويلة جداً (ص 63-65) تمتد إلى 114 بيتاً من الرجز المصروع (المزدوج أيضاً)، يفصل فيها الكلام على حياة "خالد" منذ دخوله في الإسلام مع عمرو بن العاص، وتسمية الرسول (ص) له بأنه "سيف الله" فيقول: (ص 63).

مَنْ طَبَعَ السِّيفَ وَمَنْ جَلَاةٌ؟ هَلْ يَصْنَعُ الْآيَاتِ إِلَّا اللَّهُ؟
قَلَدَهُ مِنْ رَبِّهِ مُحَمَّدُ يَسْأَلُهُ بِإِذْنِهِ، وَيُعْجِزُ
خُلِقَتْ لَا أَعْظَمُ السِّيُوفَا إِلَّا الشَّرِيفَ الْعَالِيَّ الْعَيُوفَا
الْمَفْتَدَى بِحَدِّهِ مِنْ مَظْلَمَةٍ وَالْمَهْتَدَى بِنُورِهِ فِي الْمَظْلَمَةِ
كَابِنِ الْوَلِيدِ مُوَسِّلِ الْأَعْلَامِ سَيْفِ الْإِلَهِ، أَسَدِ الْإِسْلَامِ
طَلَّقَ جَاهِلِيَّةَ الْمَعَاصِي وَدَخَلَ الْإِسْلَامَ وَابْنَ الْعَاصِي

ويتابع شوقي الحديث عن مزايا هذا القائد الفذِّ، ومنزلته العالية، وتأدِّبه بأدب الإسلام، يصاحبه النجح والظفر أينما سار، وفي كل معركة خاضها (ص 64):

فَمَا مَضَى فِي مَوْطِنٍ أَوْ هَمَا إِلَّا وَكَانَ اسْمًا عَلَى مَسْمَى
أَلَيْسَ كَافِيَّ الْإِمَامِ الشَّدَّةُ؟ وَقِصَامُ الْفَتْنَةِ يَوْمَ الرَّدَّةِ؟
وَقَاتِلَ "الْكَذَّابِ" فِي الْمَعَارِكِ وَكُلَّ أَفَّاكٍ لَهُ مُشَارِكِ

ومن حروب الردَّة ومقتل مسيلمة الكذاب ومَن على شاكلته نصل إلى فارس والروم:

أَيَّامُهُ مَشْهُورَةٌ فِي فَارِسِ مَسْطُورَةٌ فِي صُحُفِ الْفُؤَارِسِ
خَاضَ بِهَا الْوَقَائِعَ الْكِبَارَا وَفَتَحَ الْحَيِيرَةَ وَالْأَنْبَارَا
وَاحْتَاجَتْ الشَّامُ إِلَى هُمَامِ أَرْوَغَ يَحْمِي عَسْكَرَ الْإِمَامِ
يَفْحُمُهَا عَلَى جَمْعِ الرُّومِ وَيُثْنِي بِفَتْحِهَا الْمَرْوَمِ

فلم تقنع إلا عليه الخيرة إن الرجال أفضل الذخيرة
 خلى العراق وتولى الشاماً نجماً لأهوال السرى جشاماً
 ولا يخفي شوقي إعجابه بخالد وبلائه وأريحته، حين قطع بادية السماوة بين العراق والشام،
 فأنسى الدنيا "هانيبال" القائد القرطاجني، وغبوره جبال الألب بجيوشه، فيقول (ص 64):
 يقطع غُفلاً، ويجوبُ بائراً إن المغيثُ من أتاك طائراً
 فكان في "السَّماوة" الركبُبالا لا تذكر الألبَ وأنيبالا
 تخفق فوق رأسه "العقاب" في مَهْمَهِ تُنكره العقاب⁽¹⁾
 حتى وافى خالد "اليرموك" ولم يثبت أحد في وجهه وهو مارٍ بتدمر والقريتين وآل غسان،
 وتولى قيادة الجيوش: (ص 65)
 أقبل سيفُ الله يُزجي خيلةً ويلَ هرقلُ منه ثم ويكُله
 وأمّر الجيشُ عليهم خالداً وانتظروا اليومَ العظيمَ الخالداً
 وتواقف الجيشان المتحاربان، جيش العرب المسلمين، وجيش الروم، ودارت رحى المعركة
 غير المتكافئة:
 تراءيا على تفاوت الفئدة ذا منبتا ألف، وذا نصفُ المينة
 ونشبت جائحة الدهور عدوة القاهر والمقهور
 فدهم الرومَ الرعيلُ المسلمُ إن العتيق بالعتاق أعلم⁽²⁾
 وكانت النتيجة هزيمة نكراء ماحقة للروم في يوم خالد كيوم بدر (ص 65):
 يومٌ كبدر في الفتوح منزلة أمسى هرقل بعده لا عزلة
 لما رأى سلطانته تداعى صاح: الوداع سوريا، الوداعا
 وإنما أوردنا شواهد كافية من ديوان شوقي "دول العرب وعظماء الإسلام" ليتبين لنا أن السرد
 التاريخي القصصي هو الغالب على تلك الأرجوزة التاريخية المطولة، وإن كان شوقي يحاول بين
 الحين والآخر - أن يخفف من عبء ذلك الجفاف الشعري بإيراد بعض الصور والتأملات والحكم

(1) العقاب، الأولى: راية النبي (ص) وكان خالد يحملها في المعركة، والعقاب، الثانية، طائر من الجوارح قوي الخالب.
 (2) العتيق: هو أبو بكر الصديق، الخليفة. والعتاق: الخيل الأصيلة.

التي تضيف على شعره هذا بعض الظلال الغنائية.

يضاف إلى ذلك أن أحمد شوقي لم يلتزم الترابط التاريخي والتسلسل المنطقي للأحداث في أقسام أرجوزته تلك، وإن كان الخط العام لها يوحى بذلك التسلسل، ومن شواهد ذلك حديثه عن خالد ابن الوليد في موضعين متباعدين من حيث الزمن، وجاء ثانيهما بعد الحديث عن خلافة الإمام علي ابن أبي طالب، ومعاوية، وعمر بن العاص، ليأتي كلام شوقي -بعد خالد- عن دولة بني أمية.

ويأتي معاصر شوقي في مصر، وهو الشاعر حافظ إبراهيم، فينظم في تلك الفترة نفسها سنة 1918 م قصيدة مطوّلة على رويّ واحد، وعلى البحر البسيط⁽¹⁾، وقد بلغ عدد أبياتها 187 بيتاً.

وعُرفت تلك القصيدة بالعمريّة، وأنشدها حافظ في الحفل الذي أقيم لسماعها بمدرج وزارة المعارف (وزارة التربية اليوم) مساء الجمعة 1918/2/8م، وهذه العمريّة تتناول، في سردٍ مسهب، حياة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، الحافلة بالأمور الجسام حتى مقتله سنة 23 هـ.

وقد قسمها حافظ إلى عدة أقسام، ولكل منها عنوان خاص، تتوالى على هذا النسق بعد المقدمة: (مقتل عمر، إسلام عمر، عمر وبيعة أبي بكر، عمر وعليّ، عمر وجبله بن الأيهم، عمر وأبو سفيان، عُمر وخالد بن الوليد، عُمر وعُمر بن العاص، عمر وولده عبد الله، عمر ونصر بن حجاج، عمر ورسول كسرى، عمر والشورى، مثال من زهده، مثال من رحمته، مثال من هيئته، مثال من رجوعه إلى الحق، عمر وشجرة الرضوان، الخاتمة).

وقد مهد حافظ إبراهيم لقصيدته هذه بأربعة أبيات جعلها مقدمة لها، يقول فيها:

حسبُ القوافي، وحسبي حين ألقبها، أني إلى ساحة "الفاروق" أهديها
لا همّ، هب لي بيتاً أستعين به على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتني نفسي أن أوفّيها وليس في طوق مثلي أن يوفّيها
فمرّ سريّ المعاني أن يواتيني فيها، فإني ضعيف الحال واهيها

وظاهر أن الشاعر قد نظم قصيدته الرائعة هذه بوحى من الماضي التليد، الذي هو نبراس للحاضر، ومن الاهتمام بشخصية الخليفة الفاروق، ذلك النموذج الحي الناطق للحاكم العربي الذي تتشوق الجماهير إلى مثله في محنها وظروفها العصبية، ومن حق تلك الشخصية العظيمة على حافظ أن يستعيد سيرتها، ويستحضر جلائل أعمالها، ليهزّ الروح الوطنية والقومية في النفوس، عسى أن يكون في نابذة الأمة من يجلو لحاضرها مرآة ماضيها لأن في تجارب الأجداد خير ما يفيد الأحفاد. وهذا هو فحوى ما صرّح به حافظ نفسه في خاتمة "العمريّة" عندما قال عن عمر رضي الله عنه:

هذي مناقبة في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها

(1) أنظرها في ديوان حافظ إبراهيم 97-77/1 ومنها القسم الخاص بـ "عمر وخالد بن الوليد" ص 84-87.

نعل في أمة الإسلام نابئة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصُروح، وما عاتاه باتيها
وحسبها أن ترى ما كان من "عمر" حتى يُنبئة منها عين غافيتها

وفي مرورنا بأجزاء هذه القصيدة -التي تدل على أن حافظاً قد قرأ سيرة "الفاروق" وأحاط بكل تفاصيلها من مختلف المصادر - نقف عند القسم الذي عقده حافظ للكلام على "عمر وخالد بن الوليد" في 29 بيتاً، وطبيعة موضوع القصيدة لا تتيح للشاعر أن يخرج عليه إلى التفصيل في حياة خالد وأعماله وبطولاته مما يعدّ استطراداً لا يناسب المقام، وخير الكلام ما كان مراعيّاً لمقتضى الحال.
بدأ حافظ حديثه هذا بقوله (الديوان 84/1)

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت
غزا فأبلى، وخيل الله قد عقدت

ثم يمضي حافظ فيحدث عن شجاعة خالد ومعاركه مع الفرس والروم، وأنه ظفر في ثلاثين موقعة سجّلتها له يدُ الفتح:

ما واقع الروم إلا فرّ قارحها ولا رمى الفرس إلا طاش راميتها
عشرون موقعة مرت محجلة من بعد عشر، بنانُ الفتح تحصيلها
وخالد في سبيل الله مؤقدها وخالد في سبيل الله صاليتها

وبعد ذلك الجهاد، وتلك الجهود، وحين تولى الخلافة أبو حفص عمر:

أتاه أمر "أبي حفص" فقبله كما يقبل أي الله تاليتها
واستقبل العزل في إبان سطوته ومجده، مستريح النفس هاديتها
ألقي القيادة إلى "الجراح" ممثلاً وعزة النفس لم تجرح حواشيتها
وانضم للجند يمشي تحت رايته وبالحياة، إذا ماليت، يفديتها
وما عرته شكوك في خليفته ولا ارتضى إمرة "الجراح" تمويها

إنه لموقف رائع ونادر، سجّله التاريخ للقائد المظفر "خالد" بأحرف من نور، وهو يستقبل أمر العزل عن القيادة، من أمير المؤمنين، بكل الرضا وبتمام الانضباط والطاعة، ولم يسئ الظن بعمر، بل إنه - حين أدركته الوفاة فيما بعد - أوصى عمر بأولاده من بعده، وكان حزن عمر أيضاً عليه

حين وفاته كبيراً، وترك النساء يبكينه:

فخالد كان يدري أن "صاحبه"
لذاك أوصى بأولاد له "عمرأ"
وما نهى "عمر" في يوم مصرعه
نساء مخزوم أن تبكي بواكبيها

وقد اعتذر حافظ إبراهيم عن صنيع الخليفة بخالد، وقد خاف افتتان المسلمين به "وفتنة النفس أعيت من يداويها"، وهو الخليفة العادل الذي لم يتوان عن جلد أحد أبنائه وإقامة الحد عليه لشربه الخمر، ولم تأخذ به رافة في دين الله:

تالله لم يتبع في "ابن الوليد" هوى
لكنه قد رأى رأياً فاتبعه
وما أصاب ابنه والسوط يأخذه
إن الذي برأ "الفاروق" نزهه
فذاك خلق من الفردوس طينته
ولا شفى غلة في الصدر يطويها
عزيمة منه لم تثلّم مواضيها
لديه من رافة في الحد يبدوها
عن النفائص والأغراض تنزيها
الله أودع فيها ما ينقيها

تلك هي أبرز الجوانب التي تناولها حافظ إبراهيم في "عمرته" مما يتصل بالفاروق عمر، وقد لاحظنا أن حافظاً لم يكن مؤرخاً وصافاً -على غرار أحمد شوقي- بل كان إلى جانب ذلك أيضاً شاعراً غنائياً ووجدانياً، يمزج التاريخ بالفن، والواقع بالخيال والصور، وهذا ما أبعدته عن جفاف العرض ورتوب السرد، وقربه من العاطفة والوجدان، في أسلوب موسيقي محبب، ونظم متماسك موقع، مع رصانة العبارة، وفصاحة التركيب.

والشاعر الثالث المؤرخ هو أحمد محرم (1877-1945م)⁽¹⁾ صاحب "الإلياذة الإسلامية" التي تضمن السيرة النبوية كلها شعراً شبيهاً بشعر الملاحم، موزعاً على موضوعات وأقسام جزئية يحمل كل منها عنواناً مناسباً، من أول الدعوة الإسلامية حتى عام الوفود، وفود رجال القبائل على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة معلنين الدخول في الإسلام وذلك سنة 9هـ، وكتبه عليه السلام إلى الملوك، والسرايا العسكرية إلى مختلف الجهاد، وعلى كل سرية أمير يتولى قيادتها.

تقع هذه الإلياذة الشعرية في 455 صفحة، ويبدأ القسم الأول منها بعنوان "مطلع النور الأول من أفق الدعوة الإسلامية" يقول فيه أحمد محرم:

(1) أحمد محرم شاعر مصري غلب على شعره الاتجاه الوطني مع النزعة الإسلامية، وهو امتداد لمدرسة التقليد. عرف في شعره بقوة الديباجة وجزالة اللفظ، وغلبت عليه حرارة العاطفة وصدق الإيمان. ومن آثاره: ديوان أحمد محرم، وديوان مجد الإسلام (أو الإلياذة الإسلامية)، وقد طبعت الإلياذة هذه سنة 1963م بعد وفاة الشاعر ببضعة عشر عاماً.

أَمْلاَ الأَرْضَ يَا مُحَمَّدُ نورا
حُجِبَتْكَ الغُيُوبُ سرّاً تجلّى
عَبَّ سَيْلُ الفَسَادِ فِي كُلِّ وادٍ
جُنْتُ تَرْمِي عُبابَهُ بِعُبابٍ
يُنْقِذُ العَالَمَ الغَرِيقَ وَيَحْمِي
وَإِغْمَرَ النَّاسَ حِكْمَةً وَالدَّهْورا
يَكْشِفُ الحُجُبَ كُلَّهَا وَالسُّتُورا
فَسْتَدْفِقُ عَلَيْهِ حَتَّى يَغْشُورا
رَاحَ يَطْوِي سَبِيلَهُ وَالسُّبُورا
أُمَمَ الأَرْضِ أَنْ تَذُوقَ الثُّبُورا⁽¹⁾

وليس من شأننا هنا أن نقف عند هذه الإلياذة الضخمة ونفصل القول في مضمونها وخصائصها وبنيتها وماهية الأحداث فيها، ومدى تحقق شروط "الإلياذة" عامة فيها، ونكتفي بالقول موجزين: إنها تضم عدة آلاف من الأبيات الشعرية التي اقتصررت على مجريات السيرة النبوية وما صاحبها أو كان فيها من أحداث مختلفة تتصل بالهجرة من مكة إلى المدينة، والغزوات: (بدر، أحد، الخندق، فتح مكة، خيبر، حنين، بنو النضير، الحديبية، تبوك...) والأمور المرتبطة ببعض القبائل والأشخاص من الصحابة وغيرهم: (الخرزج، الأنصار، المهاجرون، المنافقون، اليهود، حمزة بن عبد المطلب، سعد ابن معاذ، الشاعر كعب بن زهير، أمهات المؤمنين... الخ) ومسجد الضرار، وكتب النبي ﷺ إلى الملوك، و الوفود المختلفة، والسرايا التي تنتهي بسرية الشاب أسامة بن زيد، ويذكر فيها مرض النبي (ص) ووفاته، وتولي أبي بكر الخلافة⁽²⁾.

وقد راعى أحمد محرم التسلسل التاريخي للأحداث وما إليها في المواضع التي تحتاج إلى ذلك أو تساعد عليه، وهو في إلياذته هذه لا يكتب ملحمة كملحمة هوميروس ولا يعالج حرباً معينة، وإنما هو ينظم سيرة الرسول (ص)، فيها الحرب وغير الحرب، وقد قرأ تلك السيرة في التاريخ قراءة جيدة واعية ثم حول هذا التاريخ شعراً أو نظماً على نحو ما عُرف من أراجيز ابن عبد ربه، ولسان الدين بن الخطيب. إلا أن أحمد محرم استخدم البحور الشعرية المعروفة كالمقارب والكامل والوافر والخفيف والبسيط، ونوع الرويات في كل قصيدة ولم يلتزم رويّاً وإحدّاً، ومهد لقصائد الإلياذة كلها بمقدمات نثرية تاريخية تلخص الموضوع الذي نظمه بعد ذلك شعراً، وتظهر التطابق الصحيح بين التاريخ والشعر من حيث المضمون.

ومن الظلم للشاعر أن ننتهم إلياذته بالجفاف، وأن نتابع من وصفها بأنها من متون الحفظ والتدريس أو أنها من الشعر التعليمي، فالحق أن أحمد محرم كان في كثير من الأحيان يخرج عن إطار التاريخ الصرف والسرد المباشر إلى واحات ظليّة يكون فيها للخيال والعاطفة الغنائية نصيب كبير يقرب شعره من الشعر الغنائي ويمزجه بالشعر التاريخي والحكم والتأملات، مما لا يكون عادة

(1) الإلياذة الإسلامية، ص 3.

(2) كما يجدر ذكره هنا أن أحمد محرم أفلتت من بده فرص كان يمكن أن تغني إلياذته كحادثته الإسراء والمعراج. التي تعد كترّاً عظيماً

لصنع مادة قصصية مثيرة.

في الأراجيز التاريخية الخالصة، كما سنرى.

أما مكان خالد بن الوليد في هذه الإلياذة التاريخية وأخباره ومعاركه فمن الطبيعي أن يقتصر الشاعر على ما كان منها في عصر النبوة أولاً، وأن تكون موزعة ومتناثرة بحسب التسلسل التاريخي ثانياً، ويفصل بينها أحداث وأخبار أخرى لغير خالد.

وقد تناول أحمد محرم في إلياذته الجوانب التالية من حياة خالد:

(معركة أحد والرمّة، ودور خالد فيها، غزوة مؤتة وإنقاذه الجيش حين تولى القيادة، فتح مكة وهدمه للأصنام كالعزى، اشتراكه في غزوة الطائف مع النبي (ص)، دومة الجندل والأكيدر، السرايا التي أرسل على رأسها)

ففي قصيدة "الرمّة" التي جاءت في أعقاب الحديث عن "غزوة أحد"، وعلى وزن البحر البسيط، يصف أحمد محرم هذه الحادثة، ولحاق المسلمين بالمشرّكين لانتهاك الغنائم، ومفارقة معظم الرماة أماكنهم من أجل ذلك، وكان ذلك من أسباب تخاذلهم وتفرّقهم حين فاجأهم خالد وعكرمة بن أبي جهل بالهجوم واستشهد عدد من المسلمين من جراء ذلك، وثبت النبي (ص) ومعه جماعة من أصحابه:

أئن تولّت جنود الشّرك مدبرة	خفّ الرماة وظنّوا الأمر قد وجبا؟
يخالهم من يراهم ساعة انطلقوا	سهاهم حين جاش البأس فالتها
أصابها خالد منهم، وعكرمة	أمنية لم تُصب من ذي هوى سببا
فاستنقروا الخيل والأبطال وانطلقا	في هبوة تزدهي الأرماح والقضبا
هم خفّوا رمم القتلى مطرحة	وغادروا الجند، جند الله، والسّلبا ⁽¹⁾

ويعرض أحمد محرم لإسلام خالد مع صاحبيه: عمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة، في قصيدة طويلة على البحر الكامل وروي الميم، وقدم هؤلاء الثلاثة على رسول الله (ص) وذلك بعد أن أرسل الوليد بن الوليد إلى أخيه خالد بن الوليد رسالة يطلب منه فيها الدخول في الإسلام:

أقبل أخى وتلاف أمرك، لا تكن	ممن إذا وضح السبيل نعامي
كم موطن جليل لو أنك لم تغيب	عنه لكنت إذن أجل مقاماً
يكفيك ما ضيعت، ليس بحازم	من لا يزال يضيع الأيما ⁽²⁾

(1) ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية ص 86-87.

(2) المصدر نفسه، 262.

فخرج خالد إلى المدينة المنورة يريد الإسلام، ولقي في طريقه عثمان بن أبي طلحة، فعرض عليه الإسلام فقبله، ثم لقياً عمرو بن العاص فوافقهما أيضاً، وقدموا على النبي (ص) فأسلموا:

وفدوا كراماً يؤمنون برّبهم
ورسوله بيض الوجوه وساما
نفضوا الهوان عن الجباه فأصبحوا
شَمَّ المعاطس يرفعون الهاما
أفيعبدون مع الغواة حجارة؟
أم يعبدون الواحدَ العلاما؟
كُشف اللثام عن اليقين، ولن ترى
كالجهل سترأ، والغرور لثاماً⁽¹⁾

ويغتنم الشاعر هذه الفرصة ليسلك سبيل الحكمة والنصح في شعر غنائي جميل، وليشيد بالإسلام ديناً قيماً جاء لهداية الناس:

لو طاع الناسُ الطبيب لما اشتكى
من يحمل الأدواء والآلاما
اعرف لربك حقّه، فلحكمة
خلق العقول وأنشأ الأحلاما
أرأيتُ كالإسلام ديناً قيماً
ساس الأمور ودبر الأحكاما؟
الله أحكم أمّره، وأقامه
للعالمين شريعةً ونظاماً⁽²⁾

ولا ينسى أحمد محرم -وهو في هذه النشوة الغامرة- أن يشير إلى ما أصاب المشركين من دهشة وهلع إزاء هذا الحدث العظيم، وإلى المستقبل الذي ينتظر خالداً في الحروب والمشاهد التي قضت على الشرك والمشركين:

إني أخال البيت يشرق وجهه
وإخال مكة ترفع الأعلاما
يابن الوليد، لك الأعنة كلُّها
فانقِ المقاتب، وادفع الأقواما
سترى المشاهد ترجفُ الدنيا لها
وترى الحصون تميدُ والآطاما
بشّر حُماة الشرك منك بوقعة
تُوهي القوى، وتزلزل الأقداما⁽³⁾

وهذه غزوة مؤتة التي يأتي الحديث عنها سنة 8 هـ في حياة الرسول (ص)، وبعد دخول خالد في الإسلام، وكان النبي (ص) قد سیر ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة لمقاتلة الروم الذين خرجوا بجيش عزمهم وسلاح كثير، وكانت هزيمتهم منكراً على يد خالد بن الوليد الذي استطاع أن

(1) ديوان مجد الإسلام 263.

(2) المصدر نفسه 264.

(3) المصدر نفسه 264. المقاتب: جماعات الخيل زهاء الثلاثمائة. والآطام: الحصون.

يداور الروم بالكرّ والفَرّ، بعد مقتل القواد الثلاثة تبعاً: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وعاد خالد بالجيش.

ويقص أحمد محرّم هذه الواقعة في قصيدة طويلة على البحر البسيط وروي اللام، بلغ عدد أبياتها 66 بيتاً نقتطف منها الأبيات التالية:

يا زیدُ أدیت حقَّ الله فامض على	نهج الألى اتنقلوا من قبل ، وانتقل
وأنت يا جعفرُ المأمولُ مشهده	خذ اللواء وجاوز غاية الأمل
دلفتَ تمشي على الأشلاء مقتحماً	والقوم منجدلٍ في إثر منجدلٍ
انهض بعبئك عبدَ الله مضطلعاً	بكل ما تحمل الأطواد من ثقلٍ
خذ عند ربك دار الخلد تسكنها	قدسيّة الجو والأرواح والظلل ⁽¹⁾

وعندما تسلّم خالد قيادة الجيش في مؤتة اختلف ميزان القوى، واستطاع خالد إنقاذ المسلمين بحنكته ودرايته:

وراح يُبدع من كيد الوغى نمطاً	طاشت مرائيه بالأكباب والمقل
أذاقهم من ذعاف الموت ما كرهوا	ما كفّ عن عللٍ منه ولا نهلٍ
ولا ينسى الشاعر أن يصوّر -في هذه المناسبة- ما حلّ بالعرب والمسلمين في عصره من	
خنوع واضطهاد، فيبتهل إلى ربه أن يحمي حوزة الإسلام ويعلي رايته:	
أدعوك يا ربّ للإسلام مبتهلاً	وأنت تسمع دعوى كل مبتهلٍ
نام المحامون عنه، فهو مضطهدّ	يشكو الأذى في شعوب خضع ذللٍ
صرخ من الغزّ والسلطان ما برحت	تهوي صياصيه حتى عاد كالظل ⁽²⁾

ولن نستطيع هنا -في هذه العجالة- أن نشهد المواقف كلها مع خالد بن الوليد في تلك الإلياذة الإسلامية، كفتح مكة في شهر رمضان سنة 8 هـ واشتراك خالد فيه، وقد نظم أحمد محرّم في هذا الفتح قصيدة طويلة في 68 بيتاً على رويّ الفاء والبحر البسيط، بدأها بقوله: (ص 278)

ديار مكة، هذا خالد دلفاً	فما احتياك في الطود الذي رجفا
لما دعاه بسيف الله سيده	زاد السيوف به في عزّها شرفاً

(1) المصدر نفسه 268-270 ومؤتة: موضع معروف عند الكرك في المملكة الأردنية اليوم.

(2) المصدر نفسه 271 والصياصي: الحصون. والظل: ما ظلّ باقياً من البناء المنهدم.

وأرسل النبي (ص) -وهو في مكة- خالداً مع بعض أصحابه لهدم صنم "العزى" (1) أعظم أصنام قريش، على مسافة نحو 30 كم من مكة، فهدمها وعاد مأجوراً. وقد خصّ أحمد محرم هذه الحادثة بقصيدة على البحر الوافر وروى الهاء في عشرين بيتاً، وأولها: (ص302).

إلى العزى فقد بلغت مداها وإن على يديك لمتّتهاها
أزلهـا خالد، واهدم بناء أقـيم على جواتبها سفـها

وهكذا تتوالى أخبار خالد ومواقفه بعد ذلك في مطاوي السيرة النبوية، ولا سيما اشتراك خالد مع النبي (ص) في غزو مدينة الطائف، موطن قبيلة ثقيف، وينظم محرم في ذلك 29 بيتاً بعنوان "غزوة الطائف" (ص312-314) أولها:

ثقيف انظري، أين قصد الطريق؟ وكيف يلقى النجاة الغريق؟
مشى البأس في هوكه المستطير له لهب ساطع كالحريق

وفي شهر رجب من سنة 9 هـ يرسل النبي (ص) جيشاً لغزو الروم في تبوك، ومن هناك أرسل خالد بن الوليد إلى "دومة الجندل" بين دمشق والمدينة المنورة لغزو الأكيدر الكندي، فأسره خالد وجاء به إلى النبي (ص) فأسلم هو وقومه، ثم ارتد في خلافة أبي بكر الصديق مع المرتدين فبعث إليه خالدًا فقتله (328):

أخـالد إنك ذو نجدة فهـيا إلى دومة الجندل
إلى معشر كفرُوا بالكتاب وحادوا عن المذهب الأمثل

وبعد عام الوفود سنة 9 هـ وكتب النبي (ص) إلى الملوك (هرقل، كسرى، النجاشي...) يختم محرم إليادته بوقفية طويلة عند السرايا التي كان النبي الكريم قد أرسلها إلى مختلف الجهات في الجزيرة العربية للدعوة إلى الإسلام وخوض الحرب إذا اقتضى الأمر. وكان خالد بن الوليد ممن وقع عليه الاختيار ليكون على رأس ثلاث سرايا، مضى الحديث عن اثنتين منها: يوم هدم العزى، ويوم دومة الجندل. والثالثة إلى بني جذيمة في ناحية "يَلَمَم"، وقد حدثت فيها بعض الملابس والإشكالات التي جعلت خالدًا يتصرف مع بني جذيمة تصرفاً أسىء فهمه، مما لا سبيل إلى تفصيله

(1) لما علم سادتها بمقدم خالد على سيفه واستند إلى الجبل الذي هي فيه، وجعل يقول:

أيا عَزْ، تُدَي شدة لاسوى لها على خالد ألقى القناع وشمري

أيا عَزْ، إن لم تقتلي المرء خالدًا فبوني بلأثم عاجلٍ أو تنصري

(حاشية ديوان محمد الإسلام ص302)

هنا. وقد نظم أحمد محرم ذلك كله في عشرين بيتاً على روي الباء والبحر البسيط، بدأها بقوله (ص 395):

بنى جذيمة ما في الأمر من عجب جرى القضاء على ما كان من سبب
أظلم خالداً، لا شيء يبعثه إلا الجهاد، يراه أعظم القرب

وبذلك تنتهي رحلتنا مع خالد بن الوليد من خلال ما تضمنه ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية لأحمد محرم. وقد قدّمنا من قبل بعض الآراء التي تنصف هذه الإلياذة، وتبعد عنها طابع السرد الجاف، وتدنيها من الشعر الغنائي، ممزوجة بالصيغ المتنوعة في توجهها، والتأملات العميقة، والربط بالحاضر الكئيب للعرب والمسلمين، والتطلع إلى مستقبل وضاء، ونهضة مشرقة (ص 121):

أبقى قلوب الناس في ظلماتها تظاهروا أكناناً عليها وأقفال؟
هو النور، نور الله، يملأ أرضه فتلقى الهدى فيه عصور وأجيال
أتى مطلق الأسرى يحرر أنفسا لها من سجاياها قيود وأغلال

ونقف أخيراً عند شاعر رابع من سورية هو بديع المعلم، الذي نظم ملحمة ضخمة في بضع مئات من الأبيات بعنوان "ملحمة اليرموك"⁽¹⁾ على البحر الخفيف، وكلها أيضاً على روي الدال المكسورة، وهي ليست خاصة بخالد بن الوليد وإن كان له دور أساسي في تلك المعركة الخالدة، التي سبقتها مفاوضات ومقدمات، وتبعها نتائج مهمة وتدابير حازمة. ويأتي ذكر خالد هنا في المواطن التي شارك فيها، وكان له آثار واضحة أو مشهورة، منها اجتيازه الصحراء وبادية السماوة وتدمير:

وإذا خالد يقود السرايا ثم تلقى له لواء الإياد
شق قلب الصحراء وهي تشظى من لهيب الرمضاء عبر الرماد
الميامين طول سير الفياضي حملتها التاريخ فوق الجياد
رفعت مشعل الحضارات زهواً ومشيت عبر ليلها المناد

ومنها مبارزة خالد لقائد الفرس "هرمز" وتغلبه عليه:

ومشى "خالد" إليه كليث يتشظى من ثورة واعتداد
بعد لأي تعاقبا بحسام حيث تبدو كفاعة الأتداد

(1) نشرت "ملحمة اليرموك" على عدة حلقات في أعداد من المجلد 42 من مجلة "التمدن الإسلامي" بدمشق.

عاجل الخصم "خالد" بحسام
ورماه من فوق ظهر الجواد
ومنها الأعمال الجليلة التي قام بها خالد خلال معركة اليرموك:

يا حسام اليرموك أي مطايا
أنت أرقصنتها بـيوم التنادي؟
بارك المجد خصلة من نبي
صننتها تحت خوذة باعداد

ولسان حال خالد يقول، وهو أبعد ما يكون عن الغرور، معترفاً بنعمة الإسلام:
من ترى "خالد" يكون؟ وماذا
شأنه لولا النبي الهادي
عشت عمراً. فنصفه كنت ميتاً
منذ إسلامي ابتدا ميلادي

وبعد شيء من الاستطراد يعود الشاعر إلى مناجاة خالد وتخيل حوار بينه وبين خالد حول
تلقب النبي (ص) له بسيف الله، واعتزازه بهذا اللقب، ودعاء النبي الكريم له بالنصر في كل زحوفه
ومعاركه:

ودعا لي بالنصر في كل زحف
أي زاد في الذود يشبه زادي؟
وأخيراً كان لخالد في ملحمة الشاعر بديع المعلم عدد من المآثر يوم اليرموك، كتوحيد صفوف
الجيش، وتشتيت شمل العدو، وحصد رؤوس أفراد، بعد أن حال بينهم وبين النجدة القادمة إليهم:
خالد وحد الصفوف جميعاً
إذ دعاهم إسلامهم لاتحاد
أعمل العزل في صفوف عدو
بين شتى مشاتهم والجياد
تم عزل الرومان من كل صوب
لم تصلهم بـقية الإجماد
منجل الموت قائم يحصد الهام
فتهوي بمنجل الحصاد...

إن "ملحمة اليرموك" تعدّ من الشعر التاريخي، القائم على السرد المباشر وتأريخ الحوادث، وقد
يعطي الشاعر عمله هذا طابعاً غنائياً وجدانياً بين حين وآخر، وهو على كل حال قريب جداً من
أعمال سابقه في "دول العرب وعظماء الإسلام" و "العمرية" و "الإلياذة الإسلامية" ولعل تسمية
الشاعر بديع المعلم لعمله هذا بالملحمة آتية من طولها أولاً ومن أنها تتحدث عن معركة حربية ثانياً.
ثم إنه لم يلتزم التسلسل التاريخي للأحداث التزاماً دقيقاً، بل قد يؤخر أو يقدم، وقد يستطرد فيخرج
عن الموضوع، كما فعل حين ناجى النبي (ص) ومدحه، وحين راح يشيد بالإسلام، وهارون الرشيد،
وموقعة مؤتة... الخ.

ب) وأما الاتجاه الآخر لذلك الصدى، صدى خالد بين الوليد في الشعر العربي، فهو ذلك الذي
خص خالد بقصائد مطولة مستقلة وكاملة تقتصر على شخصيته وحدها، وجلال أعماله وعظيم

خصاله. ويختلف هذا الصدى عن قسيمه السابق في أن قصائده أعمال شعرية فنية، تكامل بناؤها، وحملت عناوينها اسم خالد أو لقب "سيف الله"، وفي أن واحدة منها ليست من الشعر المعاصر وإنما هي تعود إلى تلك المرحلة الانتقالية بين أواخر العصر العثماني وبداية عصر النهضة، على خلاف بين الباحثين ومؤرخي الأدب العربي في تحديد نهاية الحكم العثماني، وبدء عصر النهضة الحديثة - تلك هي قصيدة الشاعر الشيخ أمين الجندي (1766-1841م)⁽¹⁾ التي بلغ عدد أبياتها 65 بيتاً⁽²⁾، ومطلعها:

نفحات السَّعود تُدني بعيدي من ثرى روضة المقام السعيد

وهي قصيدة مدحية على البحر الخفيف، سار فيها الجندي على طرائق المدائح النبوية عند البوصيري ومن جاء بعده، إلا أن تلك هي في مديح النبي عليه السلام، وقصيدة الجندي في مدح خالد بن الوليد، ولم يخرج عن موضوعه هذا من حيث المحور الأساسي فيها. وقد بدأها بالتحنن إلى لقاء الأحباب وأهل المودة:

فبقلبي من التشوق نار من تنائي الأحباب ذات وقود

(1) الشيخ أمين الجندي من أعيان مدينة حمص. مولده ووفاته فيها. تردد كثيراً إلى دمشق فأخذ عن علمائها، وعاشر أدباءها. سجنه والي حمص أيام السلطان محمود العثماني إثر وشاية بأنه هجاء، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة بعد مقتل والي حمص على يد بعض الثوار. توفي الجندي سنة 1257هـ/ 1841م.

(2) القصيدة في ديوانه ص 14-18 وللجندي في الباب الثالث من ديوانه، وهو "في القدود اللطيفة والأناشيد الظرفية" نصّ شعري قصير وصف بأنه "عروض (لرسلك سلام يا سيدي)، حجاز" يقول فيه (ص 297):

خالد يا بن الوليد	يا فتي العزم الشديد
أنت سيف الله مُردّي	كل جبار عنيد
قد سما عز انتصاري	فيك يا حامي الديار
قد علا حق الجوار	يا ملاذاً للطريد
أنت حصن للعريّل	أنت غوث للدخيل
أنت سيف للرسول	أنت ذو الفضل الحميد
سيف حق فيه ريمت	عصبة في البنفس ييمت
من قضاء الله صيغت	ذاته، لا من حديد
صلّ يا ربّ الأنعام	على مصباح الظلام
وعلى آل كرام	وصحاب وجنود

لست أدري ما حيلتي في لقاهم وميتى أششتفي بنـيـلٍ ورود
ثم يذكر بعض الأماكن المقدسة متعلقاً بها مثل: الحطيم، والركن، وسلم.. ليصل منها إلى معهد
الأصحاب وهي مدينة حمص، حيث يرقد سيف الله خالد بن الوليد. وينطلق من ذلك إلى مدح خالد
بسجايته وجلال أعماله ومكانته عند رسول الله (ص):

سيف مولاه بالفتوحات، حامي
ما شكا غضبه الظما يوم حرب
وسل الروم يوم فتح دمشق
فتح النصف عنوةً وجرى الصلح
حوزة الدين بالحسام الحديد
مذ رواه من نهل حبل الوريد
كيف أفناهم بعزمٍ شديد
مع ابن الجراح أكرم صيد

وبعد هذا كله يموت على فراشه دون أن يُرزق الشهادة:

وغدا يوم شرب كأس المنيا
يلتقي الموت وهو فوق فراش
يشتكي دمع أهله للخدود
في ظلال السيوف تحت البنود
أسفاً كيف؟ بعد قهر الأسود
غادرتـه أن لو يكون طريحاً

وفي الأبيات الأربعة والعشرين الباقية من القصيدة يحمل الشاعر زائر ضريح خالد رجاءً بأن
يذكره في حضرته، لأن "الجندي" كان في ذلك الوقت بعيداً عن حمص:

بعدت داره وشطّ مزاراً
ثم يتوجه بالمناجاة إلى خالد نفسه، شاكياً إليه ذنوباً أثقلته، عسى أن يفرج الله عنه ببركة ذلك
القائد ذي المقام الرفيع عند ربه، وعند النبي الكريم:

سـيـدي، إنني محبـبـك راج
أثقلتني الذنوب حتى رميتني
أن أنال الخلاص يوم الوعيد
في قيود الهوان والتكيد

ويختتم "الجندي" قصيدته ببضعة أبيات يُظهر فيها تواضعه ويطلب قبول العذر على تقصيره في
المديح، ويصلي ويسلم على النبي (ص) كما هو الحال في القصائد النبوية:

لست بالمادح المجيد، ولكن
فاجبروا كسرَه بنظرة عطف
جُلُّ قصدي ولاؤكم للشريد
وأسلكوا فيه للعلا والصعود
للذي حَفَكم بعزٍّ مديد
وصلاة مع السلام دواماً

وعلى آله، ومن أنت منهم صحبه غاية الرجا المقصود..

فهذه القصيدة الرائدة ضمت نفحات شعرية موفقة على ما فيها من بعض الضرورات، وهي ذات طابع ديني بحكم اختصاص صاحبها ومألوف عصره، وقد جمعت بين السرد التاريخي البسيط وبين التأمل والحكم، مع الاختصار على ما لهُ علاقة بخالد بن الوليد باختصار وجيز على طريقة المدائح النبوية، مع وصف ضعف حاله وذنوبه، وحبه للنبي (ص) ولخالد.

ونحن لا نطلب منه فوق هذا، وهو الفقيه الذي يمثل عصره وبيئته كما تمثل قصيدته ثقافته.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، نظم الشاعر عمر أبو ريشة (1908-1990م) قصيدة بعنوان "خالد بن الوليد"⁽¹⁾ وذلك سنة 1938م وهو يومئذ في نحو الثلاثين من العمر، وبلغ عدد أبياتها 69 بيتاً على البحر الخفيف، وقد حاول أبو ريشة أن يربط فيها بين الماضي التليد والحاضر الطريف، وبدأ بهذا المطلع (ص231):

لا تنامي يا راويات الزمان فهو لولاك موجة من دخان
تتوالى عصوره وبها منك ظلال طرية الألوان
أبدأ تبسم الحياة عليها بسمة المظنون للحدثان

إنه يناجي راويات الزمان اللواتي يصدقن في أحاديثهن، ويروين الأخبار على توالي الأيام فيمنحنها ندوة وطراوة، ويبثها الشاعر شجونه وبنات صدره. ويستمد منها إلهامه ومعانيه، لينطلق إلى عوالم فسيحة ذاتية وجدانية، وتاريخية وقومية، تتفق والحالة التي تمر بها الأمة العربية في ذلك الحين، والحرب العالمية الثانية تدق طبولها وتقصف بوابر رعودها وبرقها، والشاعر مستوفز الأحاسيس توقظه الذكرى، فيهمي الشعر على لسانه: (ص232):

راويات الزمان هل شعر الرمل بنقض الغبار عن أرداني؟
وانفلاتي من الغيوب بأقدام غريب نائي الحمى حيران
ماله في وجومه يغمز الشعر فيهمي مثالثاً ومثاني؟

ويصل الشاعر بعد هذا التقديم إلى "موقعة أحد" وما كان من استعداد قريش وبنو مخزوم بالسلاح والخيال لينأروا لهزيمتهم في "موقعة بدر" وساعدهم على ذلك انشغال الرماة المسلمين بجمع الأسلاب والغنائم، وثبت النبي (ص) في القتال وهو يصيح بأصحابه أن يعودوا إلى القتال (ص233):

(1) نشرت هذه القصيدة في ديوان "من عمر أبو ريشة - شعر" المطبوع في بيروت سنة 1947م ص 231-240 كما نشرت ثانية في دواوينه الأخرى التي ظهرت فيما بعد.

ما أرى؟ هذه ذوائب مخزوم
سدلوا الأزر مغضبين وشدوا
يطلبون النبي في "أحد" والثأر
وثب الهول وثبة فلت البيض
وعدا المؤمنون في غفلة النصر
فددت صيحة النبي، فثابوا
وهذي خيامهم والمغاسي
الخمر واستلأموا ليوهم رهان
طاغ، لم يثنهم عنه ثان
وشطت عوالي الممران
وراء الأسلاب كالعقaban
فإذا هم في قبضة العدوان

ويشعر المسلمون بالحرَج والخل لما كان منهم، مما فسح المجال لخالد بن الوليد أن يداهمهم من الخلف. ويعقب الشاعر هنا على ذلك بالحديث عن خالد وعبريته في القتال، حيث يبعد به الخيال إلى ما تخبئه الأيام لخالد من الهدى والدخول في الإسلام، وتكفيره عن ذنوبه السابقة بصدق الإيمان وصدق الجهاد في الفتوح والدفاع عن حوزة الدين (ص235-237):

أطرق المؤمنون، والأمل العائب
إنه ابن الوليد زغردة النصر
مر في ناظري طيفاً بعيداً
وكأنني أراه يضرب شرق الأرض
وأرى كبرياءه دمعاً التكفير
صدق العهد فالفتوح توالي
يئدي على الجباه العواني
وأشودة الجهاد الباني
عبقري النضال ثبت الجنان
بالغرب، مشرق الإيمان
مسفوحة على القرآن
وصدى خالد بكل مكان

وبعد ذلك يتحدث أبو ريشة عن مآثر خالد في الفتوح، وشيوع صدى بطولاته في البلاد، وانتصاراته على الروم في اليرموك وغيرها. ولا يغفل الوقوف عند قضية القضايا وهي عزل عمر لخالد عن القيادة خوفاً من أن يفتن به الناس، وانصياع خالد لهذا الأمر الصادر عن الخليفة الجديد، أعني الفاروق عمر، بصدر صاف وقلب سليم (ص238):

فتنة خيف أن يشيع بها الزهو
فنحاه الفاروق، فانضم للجند
لم تززع من عزمه إمرة الفاروق
وإذا راضت العقيدة قلباً
فتلوي بالقائد الفتان
فخوراً بعزة الإذعان
بل فجرته فيض تفتاني
فمن الصعب أن يكون أناشي

78

بلغت الهزيمة نخاعه، حتى إنه ليشرب نخب انتصار عدوه:

أَوَاه يا مخزوم

الشوك في الحلقوم

والقائد المهزوم

يشرب نخب الروم

ولكن خالداً وإن حمل وحده وزر هذه الهزيمة- ليس هو المسؤول عنها وإنما هو ضحيتها وشهيدها. إنما المسؤول هو ذلك الواقع المهزوم المنهار الذي يحيط بخالد، والذي تحولت شعلة الجهاد التي كانت تتأجج بين جنبيه إلى روح تخنث وميوعة. فماذا يفعل خالد وحده وسط هذا الواقع الفاسد، وهو الذي تحمل وحده كل الجراح وكل الغصص؟:

وحين ترين رماحي بكف الصبايا تحوك، تطرز صوف التريكو

بأمنية من أماسي الشتاء مع المدفأة

وتغدو سهامى مراود كحل أمام المرايا، وبين الجفون تقلبهن امرأة

فتستصرخين دمي العاصفا

وتتكسرين وتتحسرين كأغنية في الضمير تراخت ولما تجد عازفا

فلا تنكري همتي... فإن بظهري بقايا رماحهم الواعدة.

وظل سنايك خيلهم المرجاة.

والأليم بعد ذلك أن يكون من يدين خالداً هو ذلك الواقع المنهار الذي تحولت فيه الرماح إلى إبر تطريز بين يدي فتياتته، والسهم إلى مراود كحل. ويستغل الشاعر هنا ببراعة- ملمحاً تراثياً وهو سخرية أهل المدينة بالجيش العائد من مؤتة بقيادة خالد الذي رأى أن أفضل الأوضاع بالنسبة لهذا الجيش- الذي تولى قيادته بعد استشهاد زيدو جعفر وابن رواحة -أن يعود به سالماً إلى المدينة، فكان أهل المدينة يشيرون إلى الجيش العائد ويقولون "ها هم الفرار" ولكن الرسول عليه السلام كان يرد عليهم: بل "الكرار بإذن الله":

تلطمني العيون في قریش منذ عدت

ينكرني شبابها الغريق في الملامى

وفي غشاوة الفخار والتباهى

وينظمون حول قصتي الأشعار

ويهتفون كلما مررت بين رفقتي المشعثين- "ها هم الفرار"

أموت قبل الموت في حروفهم مكفناً بالعار⁽¹⁾

وخاتمة المطاف في هذه الجولة عن القصائد المظولة التي اختص بها القائد خالد بن الوليد، هي قصيدة الشاعر المهجري الياس قنصل (1914-1981) وهي أطول قصيدة مستقلة قيلت في خالد بن الوليد⁽²⁾، إذ بلغ عدد أبياتها 105 أبيات على البحر الطويل وروي الدال، ومطلعها:

رفعت لمجد العرب ذكراً مخدداً وكنت لدين الله سيفاً مجرداً

وقد بدأها بأبيات تحدث فيها عن مآثر خالد في صيانة الإسلام وتدمير معاقل الطغيان، ودحره للفرس والروم، وحسن معاملته لأهالي البلاد المفتوحة. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شخصية خالد وفضائله النفسية وسجاياه، وخبرته بالقتال، وآرائه السديدة، وجراحاته السبعين في المعارك:

تجاس فيك الغيظ والعطف والتقى كفاحك في الإسلام بالعنف والندى

تمدك بالرأي المرجح خبرة تحلّ على آثارها ما تعقداً

إذا ضرب الأعداء للكأس موعداً ضربت بساح السيف والرمح موعداً

ندوبك عن "سبعينها" تشهد الوغى ولست تبالي أن تضاعفها المدى

ويعرّج الشاعر على الصلة الوثقى لخالد بأصحابه الكرام الذين يبجلونه ويسرون في ركابه طائعين تحت لوائه المظفر:

صحابك بين الفتح والحكم معشر تبارت سجاياهم جهاداً وسودداً

بأخلاقهم ساسوا النفوس فأذعنت وأمسى طريق النبل فيها ممهداً

ويسوقه ذلك إلى الحديث عن حساد خالد وكاشحيه الذين خابت مساعيهم ولم ينالوا منه شيئاً:

وحاول أن يغلو بشتمك كاشح مهمته أن يستريب وينقداً

وضلّ بما يرجو وأدبر خائباً وعساد يغشيه الهوان منكداً

ويقف قنصل بعد ذلك عند إسلام خالد وقد أعرض عن إغراءات الأقربين له بالتراجع عما اعتزمه، كما يقف وقفة قصيرة عند دور خالد في حروب الردة، وبعض المشكلات التي واجهته خلالها. ثم تحدث عن قضائه على هرمل الفارسي وجيشه، وتحريره للشعوب التي استضاءت بنور

(1) الأبيات المختارة لأحمد عتر مصطفى، مع تحليلها والتعليق عليها هنا، كل ذلك مأخوذ من كتاب "استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر" لمؤلفه الفاضل د. علي عشري زايد، ص 160-162.

(2) نشرت قبل وفاة الشاعر بستين، في مجلة "الفصل" في العدد 23 بتاريخ جمادى الأولى 1399 هـ/ أبريل 1979 صفحة 104-105.

الإسلام.

ويُتجه بعد ذلك إلى الشام مجتازاً الصحراء والمفاوز بما يشبه الأسطورة حتى خاض معركة اليرموك المظفّرة، وكانت النتيجة تنحيته عن القيادة، فارتضى حكم الخليفة الفاروق وبقي جندياً يحارب في صفوف المسلمين، كما بقي سرّاً تنحيته غامضاً ومجهولاً:

وأنجبت جيش الفتح في الشام قاطعاً
صحارى يجول الموت فيها معربداً
تسابق في الجري السناه مفكراً
وتقضي الليالي الكالحات مسهداً
ونازلت أقبال العداة مفاجئاً
وغادرتهم جيشاً شتيتاً مهذهاً
وأصبحت اليرموك للعرب عالماً
جديداً، وعهداً بالإباء ممجّداً
ونحتك عن رأس القيادة رغبةً
ستبقى على التفسير سرّاً ملتبداً
فلم تتظلم وارتضيت بحكمها
وكنّت قديراً أن تند وتحرداً

ولا ينهي الياس قنصل قصيدته قبل أن يعلن عن أمنيته وتلفه لظهور قائد جديد لهذه الأمة العربية التي توالى عليها الحادثات والمحن، وهي في أمس الحاجة إليه في هذه الظروف الصعبة:

ألا قائد ثانٍ لأمة يعرب
يحرك فيها عزمها المتجمداً؟
ألا قائد ثانٍ يدوي اعتلالنا
ويجعل دنيا العرب صفّاً موحداً
إلام نغض الطرف عن ربوة العلا
ونلبث في سفح الكلال نردداً
أما حان أن نجري على نحو خالد؟
أما حان أن نرضي النبي محمداً؟

وهكذا تنتهي قصيدة الياس قنصل التي تحتاج إلى وقفات أطول لا يتسع لها المجال. وقد انطلق فيها قنصل انطلاقاً شاعر لا مؤرخ. واختار الوقوف عند شخصية خالد من جوانب اختارها هو، ولم يحرص على استقصائها جميعاً. وهذا ما يسعى إليه الشعر والفن. وخاتمة قصيدته تشي بغرضه من نظمها وهو التطلع إلى قائد جديد للعرب يتحلى بتلك السجايا والخصال التي عرض الياس قنصل لبعض منها، وينقذ الأمة مما حل بها من التردّي والانحطاط والضعف، على كثرة الزعامات والرياسات في هذا العصر الأتكد.

لقد كانت قصيدة الياس قنصل في "خالد بن الوليد" لقطات فنية موفقة، بعيدة عن السرد التاريخي الجاف، وقد بث الشاعر فيها كثيراً من الصور الجميلة، والحكم المستمدة من سيرة خالد نفسه مثلاً:

ومن رام حجب الشمس بالكف لم يقم
حواليه إلا السخر مما تعمدًا
ومن كان في عرف الشمائل فرقدا
يظل، وإن ضجت أعاديته - فرقدا

تلك هي جملة أصداء خالد وسيرته وأعماله في شعرنا العربي، قديمه وحديثه، ولم نقصد فيها إلى الاستقصاء والتتبع الدقيق، مراعاة للمقام، وإنما أردنا أن نجلي الطرائق والخطوط العريضة التي ميزت تلك الأصداء التي كانت عالية قوية حيناً، وخافتة ضعيفة حيناً آخر، وتأريخاً سردياً مرة، وفناً شعرياً راقياً مرة أخرى، بحسب ثقافة الشاعر وبراعته أو بحسب العصر وتقاليد الأدبية والنقدية، لكن هذه الأصداء - على كل حال - قد حركت أذهان الشعراء، وهاجت نفوسهم. ودفعتهم إلى القول وإلى خوض هذا الميدان وربطه بالحاضر المعيش للأمة العربية التي تفتقر اليوم إلى قائد يسطر الأعاجيب، ويفعل الأساطير لبعث أمجاد هذه الأمة، وبناء حاضرها، والإعداد لمستقبلها.

□

المصادر والمراجع:

- (1) الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث: عبد النفاق - حلب 1977م.
- (2) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: علي عشري زايد - طرابلس 1978م.
- (3) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني - القاهرة 1939م.
- (4) الأعلام: خير الدين الزركلي - القاهرة 1954-1959م.
- (5) الأعمال الشعرية الكاملة: أمل دنقل - بيروت، القاهرة 1970م.
- (6) الأوائل: أبو هلال العسكري - تح. محمد المصري، وليد قصاب - دمشق 1975م.
- (7) البراعم: عمر يحيى - حلب 1936م.
- (8) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر: عبد القادر بدران - بيروت 1979م.
- (9) حافظ إبراهيم، شاعر النيل: عبد الحميد سند
- الجندي - مصر 1959م.
- (10) خالد بن الوليد: بكر موسى - القاهرة 1392هـ/ 1972م.
- (11) خالد بن الوليد: عمر أبو النصر - بيروت 1359هـ/ 1934م.
- (12) دراسات في الشعر العربي المعاصر: شوقي ضيف - القاهرة 1959م.
- (13) دول العرب وعظماء الإسلام: أحمد شوقي - بيروت 1981م.
- (14) ديوان حافظ إبراهيم: صححه وشرحه أحمد أمين، والزين، والأبياري - القاهرة 1937م.
- (15) ديوان شوقي: أحمد شوقي - تح. أحمد محمد الحوفي - القاهرة 1979م.
- (16) ديوان الشيخ أمين الجندي: بيروت 1321هـ.
- (17) ديوان عبد الله البرنوني: المجموعة الأولى (من أرض بلقيس) - بيروت 1986م.
- (18) ديوان مجد الإسلام، أو الإلياذة الإسلامية: أحمد

إبراهيم السامرائي - بيروت 1984م.
(26) من عمر أبو ريشة، شعر: عمر أبو ريشة -
بيروت 1947م.
(27) معجم البلدان: ياقوت الحموي - بيروت 1955 -
1957م.
المجلات:
1- الآداب - بيروت: نوفمبر 1972م.
2- التمدن الإسلامي - دمشق: المجلد 42.
3- الفيصل - الرياض: ع 23 / جمادى الأولى 1399
هـ / أبريل 1979م.
4- الموقف الأدبي - دمشق: ع 374 / حزيران
2002م.

محرم - تصحيح الجبوشي - القاهرة 1963م.
(19) شعر، أقتمه إلى الفن، عمر أبو ريشة - حلب
1936م.
(20) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام: النعمال
القاضي - القاهرة 1965م.
(21) الشعراء الأعلام في سورية: سامي الدهان -
بيروت 1968م.
(22) شوقي، شاعر العصر الحديث: شوقي ضيف -
مصر 1957م.
(23) شوقي، شعره الإسلامي: ماهر حسن فهمي -
مصر 1959م.
(24) عيون الأخبار: ابن قتيبة - القاهرة 1383هـ /
1963م.
(25) من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني: تح.

